نحو طب عربي من جديد
(تنشيط حركة التعريب والترجمة والتأليف للعلوم الطبية)

ليس القصد بطب عربي هذا أحياء تراث الطب العربي القديم فحسب بل الرجوع إلى اللغة العربية من جديد في حقل الترجمة والتأليف والتدريس للعلوم الطبية.

فمطالبتنا بالتعريب هو في الواقع لمواجهة رواسب الاستعمار وزحف التغريب الذي يقصد إلى هدم العقيدة في نفوس أبنائها وقد أخذ داؤه يتأصل ويستشري في أمة الإسلام وكيانها. لذلك نريد أن نسترجع بإذن الله لهذه الأمة مجدها وسؤددها وتميزها بالرجوع إلى اللغة العربية في شتى الميادين والرجوع إلى طب عربي اللغة وإسلامي العقيدة والنهج، لاسيما وأن لغة الطب الإسلامي كانت اللغة العربية منذ القديم. فعلينا نحن معشر الأطباء والأساتذة الجامعيين بكليات الطب والصيدلة في مختلف الأقطار الإسلامية أن نأخذ على كاهلنا عبء تعريب الطب وترجمة وتأليف الكتب والمجلات الطبية باللغة العربية. ولا أخال هذا ضرباً من الخيال أو من قبيل المستحيل وإنه ليس بصعب إلى درجة أن يثبط عزمنا إذ الوسائل والطاقات والخبرة كل هذا وذلك متوفر في البلاد الإسلامية بحمد الله لتحقيق مشروع مثل هذا ولا ينقصنا إلا حسن التخطيط والتنسيق.

ورجوع المسلمين ولا سيما العرب منهم إلى لغتهم، أمر بديهي ولا يمكن أن ينكره عليهم ذو منطق سليم (1). لذلك فإن على عاتق جيلنا أن يكون شبيها بجيل أولئك الأفذاذ من أجدادنا وأسلافنا الذين قاموا بنقل علوم الأمم إلى لغة الضاد.

ولنستقرئ تاريخ الطب حتى نتيقن من هذا ونستبين نهجاً فالتاريخ جدير أن يعيد نفسه ولا سيما أن كل الظروف مواتية لذلك اليوم وبشائر الخير كثيرة. لقد مر تاريخ الطب الإسلامي بثلاثة مراحل أساسية:

- مرحلة النقل والترجمة من كتب الأقدمين ولا سيما اليونان والرومان إلى اللغة العربية.
- مرحلة الإبداع والعطاء.
- مرحلة الانحطاط والتخلف والجمود.

ثم نحن الآن نجتلز الطور الأول من مرحلة النهضة الطبية في البلاد الإسلامية بتحصيل واستيعاب وهضم الطب المستورد من البلاد الغربية بعد أن أخذ عنا وطور مثل جل العلوم.

ولن يكون للطب الإسلامي كيان ومكانة جديدة إلا بالخطوة التي يجب أن تسيطر على النهضة الحديثة في طورها اللاحق بتعريب الدراسات الطبية وتنشيط حركة التأليف والترجمة في هذا المضمار.

أما ما كان من اللغة العربية والتحامها بالطب وعلومه عبر التاريخ فإن المؤرخين بمن فيهم المستشرقون مجمعون أن اللغة العربية كانت لها المكانة المرموقة واللائقة بها في شتى العلوم إذ كانت لغة العلم والمعرفة والحضارة وسيطرت في ذلك قرونا طوالا على الفكر الإنساني. فكان الشباب من مختلف الأجناس والديانات يقصدون البلاد الإسلامية لتعلم العلوم من المسلمين باللغة العربية وينهلون من ذخائر كتبهم كما هو شأننا اليوم نحن مع الغرب.

لقد كان لقرطبة في الأندلس وبغداد في الشام وغيرهما من المدن شهرة كبيرة ومكانة في استقطاب الطلبة الأجانب وتلقينهم أفواجاً العلوم الطبية وتدريبهم على أسرة المرضي بدون تميز جنس أو عرق أو ديانة...

فالطبيب الميموني مثلا وهو عربي اللغة يهودي العقيدة تعلم طبه على يد أساتذة مسلمين بلغة عربية كما هو الشأن بالنسبة لطلاب المدرسة الإسلامية العربية من الأجانب ديناً أو لغة.

وألفت الكتب والموسوعات الطبية باللغة العربية من طرف أطباء مسلمين عرب وغير عرب وأشهرها كتاب القانون لابن سينا وكتاب الحاوي للرازي وكتاب التيسير لابن زهر وكتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم الزهراوي وكتاب الكليات لابن رشد وكتاب المالكي لعلي بن العباس وكتاب التذكرة لداود الأنطاكي... فكانت هذه وغيرها من المؤلفات العربية نبراسا للنهضة العلمية، بالبلاد الغربية بعد أن نقلتها إلى مختلف لغاتها. فنشطت حركة الترجمة من اللغة العربية منذ بداية القرون الوسطى وفي ما بعد على أيدي أمثال جيرارد كريمون وأنشأت مدارس للترجمة بأسبانيا وإيطاليا وفرنسا لنقل علوم المسلمين من اللغة العربية... وها نحن اليوم أحوج لمثل ذلك بعد تفريطنا في تراثنا.

وبقيت كتب المسلمين المرجع الأساسي للجامعات والمعاهد في البلاد الغربية إلى عهد قريب، من ذلك كتاب القانون في الطب لابن سينا إذ اعتمد في تدريس الطب بإيطاليا مثلا إلى نهاية القرن السابع عشر الميلادي. وأصابت عصور الانحطاط المسلمين فتخلفنا وتخلف الطب معنا و لم تتطور لغة الطب ومصطلحاتها وبقيت جل الممارسات في حقل التطبيب والعلاج تعتمد على الطب الشعبي والمداواة بالأعشاب لعدة قرون. ثم شاءت قدرة الله عز وجل لهذه الأمة أن تبدأ انتفاضتها فتأسست الكلية العثمانية بتركيا في بداية القرن التاسع عشر حيث كان تدريس الطب باللغة العربية وتلتها أول مدرسة للطب بالمفهوم العصري بالبلاد العربية بالقاهرة، هي مدرسة قصر العيني (2) التي نهجت في البداية تدريس الطب باللغة العربية بمساعدة أساتذة أجانب ومترجمين. وحذا بمدارس أخرى في البلاد الإسلامية أن تحذو نفس الشيء باستعمال اللغة العربية أساساً لتعليم الطب من ذلك الجامعة الأمريكية في بيروت 1866 حيث درس الطب بها باللغة العربية لمدة خمسة عشرة سنة قبل انجليزيته.

وأخيرا كان لسوريا قصب السبق بالتزام تعريب الدراسة الطبية بإنشاء أول كلية عصرية تدرس الطب العام باللغة العربية مباشرة وذلك منذ سنة 1919 وأطلق عليها اسم « المعهد الطبي العربي » وبقيت هذه التجربة فريدة

من نوعها ويتيمة (زمناً طويلاً...). والجدير بالذكر أن التجربة السورية متكاملة وشاملة حيث تدرس حالياً جامعاتها الثلاث المواد جميعها بما فيها الطب والهندسة، باللغة العربية (3).

إذن نرى أن تعريب الطب الذي ننادي به قد أخذ طريقه منذ سنوات فعلينا أن نستفيد من التجربة السورية على الخصوص وأن نقوم بحصر وتقييم المنجزات في تعريب الطب والترجمة والتأليف الطبي العربي الحديث ولا ننطلق من الصفر، بل يتحتم علينا أن نشد أزر هذه الكلية الطبية العربية بالبلاد السورية التي تعاني ولا شك من كيد الكائدين وتربص المتربصين، ثم أن ننضم إلى موكب تعريب الطب الذي أخذ مسيرته بشجاعة وإيمان ويقين ثلة من الرجال، ويكون تركيزنا على ثلاثة محاور : المصطلح الطبي والترجمة والتأليف. ونرى للقيام بكل هذا على أحسن وجه أن ينشأ معهد خاص بتعريب الطب (في بلد إسلامي ما) يعهد إليه تنسيق تعريب الطب والتخطيط له ووضع برامج في إطار المحاور الثلاثة السالفة الذكر؛ ويمكن أن يكون لهذا المعهد فروع مستقلة في باقي الأقطار العربية والإسلامية تعمل بكيفية مباشرة مع كليات الطب والصيدلة والمراكز التي لها علاقة بالطب والصحة ومع مراكز التعريب والمجامع اللغوية.

وفيما يخص المصطلح الطبي، فقد قطعنا بفضل الله أشواطاً كبيرة إذ أنجزت المعاجم والقوائم لذلك، لكن نظرا لتقدم العلم فإن المصطلحات تستحدث كل يوم لذا يتحتم مسايرة ما استجد لتعريبه أو إيجاد المصطلحات اللائقة به اشتقاقاً أو نحتاً ويكون إنشاء بنك المصطلحات الطبية داخل معهد تعريب الطب شيء ضروري بالنسبة للتعريب والترجمة أو التأليف على السواء. فيستفاد منه باستعمال الحاسوب (الكمبيوتر) على نطاق واسع. وأول مستفيد منه الجامعات وكليات الطب والصيدلة والطلبة الذين يحضرون رسائلهم الجامعية. وعلينا الالتزام بمبدأ إحياء المصطلحات الطبية القديمة التي استعملت من طرف الأطباء المسلمين (مثل ابن سينا والرازي والزهراوي وابن زهر وابن رشد...) بالرجوع إلى كتبهم والتنقيب فيها عن المصطلحات وجردها. ويمكن أن يعهد بهذا إلى الطلبة المتخرجين فينجز ضمن رسائل وبحوثهم الجامعية . أما حول حركة الترجمة الطبية إلى اللغة العربية فيجب قبل كل شيء أن تحدد الكتب والمراجع الأجنبية ذات الأهمية في الطب العام أو المواد الأساسية والاختصاصات الطبية حتى تنقل إلى لغتنا من لغات الطب الحالية وهي الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والأسبانية والروسية (4). ثم يعهد إلى خبراء واختصاصيين عبر الأقطار الإسلامية إنجاز هذا العمل بتنسيق وتوجيه من معهد تعريب الطب السالف الذكر. على هذا النحو وبتخطيط منهجي يمكننا بإذن الله أن نرجع إلى لغتنا ونحفظ عقيدتنا من كل دخيل ويحصل آنذاك تغيير نحو طب إسلامي النهج عربي اللغة.

الهوامش :

1) ونؤيد رأي الدكتورة نحلاوي حيث تقول حول "التجربة السورية في التعريب" وان الدعوة إلى التريث والتدرج والتمهل بشأن تعميم تلك التجربة، خشية الإساءة إليها وإفشالها، ليست دعوة مشجعة، وإن تجارب الشعوب في هذا المجال قد تنقضها، ولقد ذكر الأستاذ هيثم محمد الهادي عطية (مشكلة تعريب الطب في البلدان الإسلامية) الأمة، العدد 40 ص 30) تجربة الأمة الفرنسية في فرنسة الطب، التي تمت بصورة عشوائية – ولدوافع سياسية – ونجحت ونضيف لها تجربة الأمة الفيتنامية، التي تمت بظروف عجيبة حيث اتخذ قرار سياسي "بفتنمة" الطب في بداية العام الدراسي، على أن يتم أداء الفحص باللغة الفيتنامية في نهايته... وذلك رغم اعتراض الأساتذة والطلبة لجهلهم بلغتهم، التي كانت قبل الاستقلال لغة بدائية تقريبا. وبقيت معطلة مدة ثمانين عاماً حلت الفرنسية خلالها محلها (المزيد من التفصيل؟ انظر مجلة العربي العدد 307 رمضان 1404 هـ) والفيتناميون شيوعيون ملحدون، ليس لهم قرآننا ولا إسلامنا، ومع ذلك فهم يقدسون لغتهم تلك، وفوق ذلك، استطاعوا « فتنمة » الطب خلال عام واحد، ثم تخطوا مرحلة النقل عن غيرهم إلى مرحلة أيجاد طب فيتنامي، واستحدثوا قسماً خاصاً للطب الشرقي في كلية الطب، فماذا فعلنا نحن؟!.

2) وكان أسسها الدكتور كلود بلي بأمر من الخديوي محمد علي سنة 1826 وكان مقرها بأبي زعبل قبل أن تنقل إلى القصر العيني بالقاهرة سنة 1837.

3) وعن هذه التجربة نترك الدكتورة نحلاوي تحدثنا حيث كتبت تقول: « إن أي إنسان يحب اللغة العربية ويعيش تجربة تعلم الطب بها، لا يستطيع إلا أن يعجب من هذا التمهل في تعميم تلك التجربة، وإلا أن يأسف لحال الزملاء في ثلاث وأربعين كلية طب في العالم العربي تدرس الطب بغير لغتها... وإن خمسة وستين عاما... كانت كافية جداً ونحن – وقد عشناها – نجد للكلمات العربية الطبية رنيناً خاصاً في آذاننا، ويدهشنا استعمال الزملاء للغات أجنبية، حيث تتوفر مرادفات عربية خالصة لها، وتلاحقنا التبعية... ونتظاهر بأننا لا نبالي... ونظن هذا التفرنج تقدما وتطوراً بينما الناس من حولنا تخلصوا من تلك العقدة، فالفرس يدرسون الطب بلغتهم والأتراك والبلغار والرومان؟ أما حديث الصعوبات التي تواجه الطبيب الدارس بالعربية، فهي عقبات سهلة التذليل، رأينا تخطيها في إطار التجربة نفسها وحيث يتم تعلم اللغات الأجنبية ومتابعة المجلات العلمية والمؤتمرات بقدر ضئيل من العناء كذلك تتم متابعة الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراه) خارج الوطن، أو داخله (توجد أقسام للدراسات العليا يدرس فيها باللغة العربية في فروع الطب جميعها وهناك مشروع قيد التنفيذ لشهادة تعادل البورد Board على نطاق الوطن العربي.).

إنما لا تزال العقبة الشائكة تتمثل في نظرات عدم الرضا، والابتسامات الصفراء التي يواجهها أحد أولئك الخريجين إذا خرج للعمل في إحدى الدول "العربية" حتى قبل تجربته وسبر مقدرته... – كما لو أنه ارتكب خطأ بتعلم الطب باللغة العربية... فكيف سيتفاهم مع طاقم التمريض والزملاء الأجانب؟ أما المرضى فتأتي أهمية التفاهم معهم فيما بعد. وإن كان هذا الوضع السلبي أن يستمر، فهو يزيد من أهمية التجربة الطبية العربية، والتي تبعث على الفخر والاعتزاز، وتشعرنا بالتميز، والالتصاق أكثر بقرآننا وتاريخنا الإسلامي وبالناس من حولنا، وبمرضانا (حول تعريب الطب مجلة "الأمة عدد 57 سنة 1985 ص 49).

4) وهنا أقف لأحيي الأستاذ الرخاوي على ما قام به من مجهود رائد في مجال التعريب والتأليف إذ ترجم أطلس سوبوتا المشهور في ثلاث مجلدات. وهذا العمل مفخرة لجيلنا وللطفرة التعريبية التي يعرفها الطب في هذا القرن في البلاد العربية. وقد حذا حذوه الأساتذة الأفاضل الذين أشرفو على طبعه ثانية في سوريا كما رأيناه معروضا في هذه القاعة.